الدروس التربوية

من الأمثال القرآنية

أ. أناهيد بنت عيد السميري

رمضان ١٤٤٥ من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن ينفعنا بالقرآن، وأن يجعله شاهدًا لنا يوم القيامة، وأن يجعله شفيعًا لنا، وأن يجعل بذور الحق التي في قلوبنا تُسقى بهذا الماء العظيم، وأن يجعل نور القرآن سببًا لسيرنا على الصراط المستقيم، ولبعدنا عن كل ما يغضب رب العالمين. اللهم جنبنا حدودك، اللهم اعصمنا بدينك وبطاعتك وطاعة رسولك، اللهم جنبنا حدودك، اللهم اجعلنا ممن يحبك ويحب ملائكتك، ويحب رسلك، ويحب عبادك الصالحين. اللهم يسرنا لليسرى وجنبنا العسرى، واجعل القرآن سببًا لذلك يا رب العالمين، اغفر لنا في الآخرة والأولى، واجعلنا من الأئمة المتقين، واجعلنا من ورثة جنة النعيم واغفر لنا خطيئتنا يوم الدين. اللهم أنت هديتنا للإسلام فلا تنزعنا منه ولا تنزعه منا حتى تتوفنا ونحن عليه. اللهم لا تُقدّمنا بعذاب ولا تؤخرنا بسيء الفتن، اللهم آمين.

كنا بفضل الله قد تدارسنا هذه السورة العظيمة؛ سورة النور التي أضاء لنا من خلالها النور، وعرفنا ما وهبنا رب العالمين من خيرات، فهو -سبحانه وتعالى- الذي خلق خلقه على فطرة سوية مستعدة للتعاليم الإلهية والعمل المشروع. وهو -سبحانه وتعالى- الذي أنزل الكتاب نورًا مليئًا بالبينات، مليئًا بدلائل الحق لمن أراد الحق. عرفنا هذه المنّة العظيمة وعرفنا أن الإنسان إذا كان صادقًا فإن رب العالمين يرشده الطريق، إذ كان يريد الحق فهو -سبحانه وتعالى- ربنا العظيم الذي يعلم ما في الصدور، فمن أقبل عليه أقبل الله عليه، ومن أراد وجه الله وتقرب إلى الله شبرًا تقرب الله إليه ذراعًا.

بعد هذا المثل ورد مثلين في سياق المثل الذي ضربه الله -عزَّ وجلَّ- لنوره في قلب المؤمن. بيّن -سبحانه- بالمثل -الذي هو مثل لنوره في قلب المؤمن- هذا النور وأثر ذلك النور في استنارة القلب وفي بصيرته، وفي كل وظائفه، وخاصة وظيفة التعقل ما يجعل المؤمن يمشي في الناس على بصيرة من أمره. وتذكرنا هذه الآية العظيمة في سورة الأنعام: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ). أتبع -سبحانه وتعالى- هذا المثل بذكر أثر النور على أعمال

هؤلاء؛ لأنهم بالنور رأوا محاسن الأعمال فلزموها ولم يشتغلوا عنها بما دونها، وأخبرنا -عزَّ وجلَّ- أنه قبل أعمالهم التي دلهم عليها نور العلم، ودلهم على أسباب صلاحها وصحتها، وأثابهم على هذه الأعمال أحسن الثواب. وقرأنا (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)، وأخبر -سبحانه وتعالى- كيف أنهم (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)، نلاحظ أن (الْأَبْصَارُ)، والـ(نُّورٌ) بينهما علاقة واضحة، وأخبر -سبحانه وتعالى- أنه سيجزيهم أحسن ما عملوا وأنه سيزيدهم من فضله.

عرفنا النور وعرفنا آثاره، بعد ذلك بيّن ما يضاد ذلك ويقابله من حال الكفار والمنافقين؛ الذين لم يجعل الله لهم نورًا لأنهم لا يستحقونه؛ لأنهم لم يأتوا بالسبب، ما هو السبب؟ إرادة الحق والإنابة والعودة للحق، وينتج من ذلك ضلال أعمالهم وظلمتها وعدم انتفاعهم بها في الآخرة. فضرب الله -عزَّ وجلَّ- هذين المثلين؛ مثل السراب ومثل البحر اللجي، نسمعه بعدما ننتهي من هذه المقدمة.

فذكر -سبحانه- في هذين المثلين ما يخص الكافرين المنافقين، في مقابل ما ذكر في المثل الأول مما يخص

المؤمنين، وهذا أسلوب معروف في القرآن، وهو أمر تفهمه الطبيعة الإنسانية، بل تحتاجه، والناس تقول: "فبضدها تتبين الأشياء." سننظر في السياق، نسمع الآيتين ونعرف بعدها دلالة السياق:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)

سمعنا المثلين اللذين يخصان الكفار والمنافقين، بعد انتهاء المثلين، ماذا قال عزَّ وجلَّ؟

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

بيّن الله -تعالى- أنه مستحق للحمد والثناء، وأن ذلك متحقق في خلقه، حيث أنه -سبحانه وتعالى- (يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، كما ذكر -سبحانه وتعالى-

بل له ملك السماوات والأرض وإليه مصير الخلائق، فهو مستغنٍ عن هؤلاء المعرضين الكافرين، المستكبرين، وهم المحتاجون إليه وهو الغني الحميد -سبحانه وتعالى-؛ لذلك هذه الآيات الكريمات -المثل وما بعده- بيّن الله لنا فيها كيف أن الإنسان هو المحتاج إلى هداية رب العالمين كيف أنه هو المحتاج إلى تطهير قلبه، وإلى نور يسير به في حياته، فالإنسان هو المحتاج إلى الله، فمن ظن أن رب العالمين حين يرشد الخلق إلى أعمال، ويضع حدودًا ويكلف تكاليفًا لأنه محتاج! فتعالى الله عن ذلك، بل لان هذا هو صلاح هؤلاء الخلق، والله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، إنما أرشد خلقه كيف يهتدون.

الآن عرفنا أنه

- أتى مثل نور الله في قلب المؤمنين.
- ثم أتى ضده؛ مثل الكفار والمنافقين.
- ثم أتى بعده ما يدل على أن الله مستغنٍ عن هؤلاء المعرضين الكافرين المستكبرين، وأنهم هم المحتاجون إليه وهو الغني الحميد.

- ماذا أتى بعد ذلك؟ أتى بعد ذلك أفعاله -سبحانه وتعالى- أشار إلى شيء من أفعاله الدالة على تفرده بالملك والتدبير، الدالة على قدرته الشاملة، نسمعها ثم نشير إلى دلالتها:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)

واضح في هذه الآية ما يدل على قدرته وتفرده بالملك وتدبيره للخلق، سبحانه وتعالى. ونلاحظ (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) يتكرر الكلام عن "الأبصار" الأبصار المستفيدة من النور، وتأتي الآية التالية أيضًا، قال تعالى:

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ)

هذه الآيات تستلزم الإيمان بالله وعبادته وحده لكن لمن تأملها وتفكر فيها، هذه الآيات كافية لهداية الخلق إلى الله، والخلق متمكنون من الانتفاع والاعتبار بدليل ما سمعنا؛ "الأبصار"، (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي

الْأَبْصَارِ) هؤلاء في الواقع ينتفعون بهذه الآيات ويعتبرون بها، هم الذين أعطاهم الله ذلك النور، فأبصرت قلوبهم وهذا واضح جدًا في الآية. أيضًا تأتي الآية التالية وتشير إلى شيء من أفعاله الدالة عليه عظمته التي لا تحتاج إلى كثير من الاجتهاد في النظر إليها:

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

انظر إلى هذا التنوع العجيب، الحيوانات التي تتوالد مادتها ماء النطفة، والحيوانات التي تتولد من الأرض ما تتولد إلا من الرطوبات المائية، ثم انظر إلى مشيهم، هل هو متساوٍ؟ لا، كلّ يخلقه الله على ما شاء، كلها أدلة على أن خالق هذا الكون على كل شيء قدير -سبحانه وتعالى- وهذا كثير ما أُشير إليه في القرآن؛ كثير أشير إلى أن الله -عزَّ وجلَّ- يخلق أشياء متنوعة، وكما قال تعالى في سورة فاطر: (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ).

بعد نهاية هذه الآية عرفنا أن كل هذه الآيات تقول إن أهل الكفر هؤلاء إنما تركوا الطريق مع بيانه. ننظر للآية (46) التي انتهى هذا السياق بها:

(لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

كنا أشرنا في لقاء أمس أن هذه الخاتم كأنها تشير إلى أن هنا انتهى الموضوع الذي بُدئ من قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ)، وهذه الطريقة عجيبة في القرآن تحتاج إلى ملاحظتها، أن يُبدأ السياق ويختم بنفس الآية أو بنفس الألفاظ أو بنفس المعنى، وهذا يدل على أن هذه الآيات المبدوءة والمختومة تتكلم عن قضية واحدة متصلة، وهذا من روائع البيان القرآني، ومثله ما ورد في سورة الإسراء -مثلًا- بدأ السياق بقوله تعالى: (لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ) وانتهى بقوله: (وَلَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ). وغير ذلك ورد في سور كثيرة حتى لا نطيل في هذا الكلام.

وصلنا إلى أن هذا كله سياق واحد، وأن هذا النور -لمن أراد النور- قريب، انظر حولك ستستضيء بكل هذا الذي خلقه الله وتصل إلى النور.

هذه القضية التي في هذه الآيات دلت عليها آيتا البدء والختام؛ من أن الله -عزَّ وجلَّ- أنزل آيات مبينات للعلم والحق في نصوص الكتاب والسنة، وأن هذا له أثر في الهداية والاتعاظ، وهذا له أثر في حصول النور في قلوب المؤمنين، وفي صحة أعمال المؤمنين. وما يضاد ذلك من حال أهل الكفر والنفاق الذين أعرضوا عن العلم، وفقدوا نوره، وأثر ذلك في ظلمة قلوبهم وضلال أعمالهم وعدم انتفاعهم بها، فالعلم العلم، والهداية الهداية. شأن عظيم!

ابتدأ السياق بذلك وانتهى كأنه تلخيص، (لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) هذا أمر يجب أن تعرفه، أن هناك من يستفيد من الآيات من أجل أن يصل إلى النور، وهناك من لا يستفيد من هذه الآيات. الذي يستفيد عرفناه؛ الله أنزل الوحي إلى أنبيائه، وجعل فيه العلم والحكمة والطريق إلى الهداية، وتحصل استنارة للقلوب وصلاح للأعمال مما أنزل الله، ومن الاهتداء بما خلق الله، والذين استفادوا هم المؤمنون الذين طلبوا العلم والتفكر والله قذف في قلوبهم الإيمان لأنهم طلبوا ذلك، وفي مقابل ذلك طريق الضلال الإعراض عما نزل من الوحي، التكذيب،

الكفران، هذا يسبب ظلمة في القلوب ويسبب ضلالًا في الأعمال، وتكون النتيجة أن الإنسان يسير وفق ما تمليه عليه شهواته بدون أن يفكر أبدًا في مصيره. نرى الآن المثل الأول المضروب لهؤلاء:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

نفكر أولًا في المثل الحسي، تصور هذا الإنسان يسير في أرض، عطشان محتاج إلى الماء، غاية في العطش، كما هو متبين، ظمآن، هذه الأوزان "فعلان" للامتلاء، يعني ممتلئًا من العطش، ما حاله؟ يبحث عن الماء، هل يرى طريقه؟ هل عنده نور؟ نعم، هناك نور محيط به ليس في ظلام، هل يرى؟ نعم، عنده قدرة على الإبصار بعينه، فهمنا هذا، ما مشكلته؟ مشكلته أنه لم يتجه الاتجاه الصحيح. النور حوله أتم ما يكون، وهو عنده قدرة أن يرى النور، وهو في حالة من العطش، شخص عطشان يلهث، يبحث عن الماء الذي يعرف أهميته وهو بأشد الحاجة إليه، فنلاحظ أنه يبحث، ويرى أنه محتاج جدًا لهذا الشيء. بمعنى أنه يعرف قيمة الماء ويحس بالحاجة إليه ويطلبه ويبحث عنه، لكنه ضل في

معرفته واتبع شيئًا خدعه. إلى أن وصل إلى مكان يظن هو أنه الماء، (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ)، هو يظن أنه الماء، (لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)! تصور الحسرة التي ستكون في قلب هذا الذي لم يجد شيئًا كان يتأمله. فيزيد عليه العطش، ويمكن أن نتصور هذه الحال بكل سهولة، فالناس في البراري والصحاري يرون ما نسميه بظاهرة السراب، ويكاد الإنسان يقسم أن هذا ماء يتراءى له في الأفق ثم يسير فلا يجده شيئًا.

نلاحظ أن الآية ختمت بالانتقال من المثل الحسي إلى المثل المعنوي الذي يُراد تقريبه،(لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) ما وجد الماء، ورب العالمين يقول: (وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ) المثل المعنوي ما هو؟

تصور حال من يعرف أهمية العلم والإيمان ويبحث عنه لكنه يعرض عن مصدره وهو الوحي الذي جاء به النبي، ويطلب المعرفة والإيمان من غير محله مع أنه في وسط مستبصر، واضح فيه الأمور لأن في المثل الشمس مشرقة لكن هو ما انتفع من الشمس، بل ضل الطريق وذهب إلى السراب. في واقعنا الناس يمكن أن يطلبوا القربى إلى الله بطريقة غير مشروعة لم يدل عليها العلم الذي جاء به النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-،

فيكون لاهثًا خلف السراب. هذه الحال يمكن أن تكون من أناس في أوساط إسلامية، أو من أناس حولهم المسلمين، فإما أن يكون مسلمًا مع المسلمين أو يكون ليس مسلمًا لكن حوله مسلمين، فيتركون ما جاء به الوحي، فلا يتلقون العلم والوحي، ويستمدون علومهم من مستنقعات الجاهلية، يتركون مسائل الإيمان ويبدلونها بميراث الفلسفة، عدم تحققه جعله يسير وراء السراب وهو لا يفكر أن هذا سراب، يلهث خلف الشبهات التي يظنها بينات ودلالات قاطعات، فأوقعه هذا في الكفر والضلال، وهذا أيضًا حاصل للناس الذين لا يكونون مسلمين، لكن حولهم أهل الإسلام محيطين بهم، واليوم الإسلام أحاط بالأرض ووصل للخلق، لكن هؤلاء يتركون طريق الوحي ومعرفته، ويبحثون بعيدًا عن هذا الدين العظيم، مع أن الدين في متناول يدهم وقريب منهم. لو نريد أن نقول: "كم في الأمة من أناس في أحوال يسيرون وراء السراب؟" سنجد الكثير، الكثير. فهناك أناس تركوا طلب العلم واليقين إلى الكشف والفيض -كما يعبرون- أعرضوا عن الوحي فوقعوا في الكفر، لهثوا خلف الأوهام والظنون، والشيطان كان يقودهم، فهم في حالهم هذه أشبه ما يكون

بأنهم يطلبون السراب، وهذا مثل كل أهل البدع الذين يتقربون إلى الله بما لم يأذن به الله، بسبب إعراضه عن العلم أو بسبب جهله بالحق وعدم سؤاله عنه؛ لذا لا بد أن نعلم أن مسؤوليتنا جميعًا نشر العلم، هذا جهاد في سبيل الله، هذا أهم أنواع الجهاد في سبيل الله، إذا نشر العلم نجا الناس وعرفوا طريقهم وابتعدوا عن الخسار، ابتعدوا عن أن يسيروا خلف الأوهام والشبهات.

نحن نتصور حال هذا الإنسان الذي يسير في صحراء، أو يسير في براري بعيدة عن الناس ومحتاج إلى الماء، ويسير يرى سرابًا يحسبه ماء، ونلاحظ أن هذا المكان (بِقِيعَةٍ)، والبقيعة هي المكان الواسع، المكان الذي لا شيء يحجب الرؤية فيه، من هذا تعرف كأنه يسير وحده في صحراء، وتشعر بحاجته الشديدة للماء. فانظر إلى شدة الحاجة التي يكون فيها، وإلى الخديعة التي دخل فيها، رب العالمين يقول: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ) شبهت حالة كدهم في الأعمال وحرصهم على الاستكثار منها مع ظنهم إلى أنها تقربهم إلى رضا الله، أو تقربهم إلى السعادة، أو تقربهم إلى الحياة المستقرة، فشبه الله كدهم في الأعمال وحرصهم على الاستكثار منها، مع هذا الظن، ثم تبين أنها لا

تجديهم. ليتها لا تجديهم فقط، بل يلقون العذاب في وقت ظنهم الفوز! تصور إنسان ظمآن يرى السراب يحسبه ماء، يسعى إليه، حتى إذا بلغ المسافة التي توقع أنه سيجد منها الماء، لم يجده ماء، وجد من؟ وجد هناك غريمًا له يأسره ويحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة، تصور حالة الحسرة والخسارة! فليس فقط أنه لم يجد الماء، بل سيجد غريمه ويصبح أسيرًا له ويحاسبه عما مضى، سبحان الله! كم لهذا المثل من أثر في التفكير. هذا الرجل العطشان كأنه هو الكافر صاحب الأعمال، انظر كيف خدع نفسه، تصور أنه عطشان ويمشي وراء السراب، يقول: "هنا سأجد الماء" ويسير ولا يجد الماء ويتأكد أن هذا سراب، ويلوح له مرة أخرى، ويلوح له مرة أخرى ويسير، إلى أن تنتهي حياته! إلى أن يأتي وقت موته، إلى أن يرى مقعده، (لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) ما وجد ما كان يخيل إلى عينيه أنه ماء، ما وجد ما كان يخيل إليه أن فيه أجور! فمثل هذه المعاني تجعل الإنسان يراجع أعماله التي يعملها من جهة مصدرها. من أين لي هذه الوظيفة التي أعملها؟ يعني من أين لي أن أقول هذ القول أو أدعو هذ الدعاء أو أعمل هذا العمل وأنا ظان أنه قربى إلى الله؟ من أين لي

أن هذا السلوك الاجتماعي لا يضر، وأن هذا السلوك الاجتماعي جيد، حتى لو كان يخالف الشريعة، وهذا اللباس لا يخالف الشريعة، من أين لك مصدر أعمالك، مصدر اعتقاداتك تجاه الأعمال، من أين لك؟

تأتي امرأة -ونحن في موضوع العفة والزينة واللباس- فتقول على أي شيء محرم في الزينة: "هل رب العالمين سيحاسبني ويعاقبني من أجل أني أخذت شعرة من كذا أو أني كشفت كذا، هذا رب العالمين؟!" وكأنها لا تدري أن رب العالمين أنزل كتابًا وأرسل رسولًا ووضع حدودًا، هذه الحدود كونك تتعداها جريمة؛ لذلك اللهم جنبنا حدودك، اعصمنا بدينك، اللهم اجعلنا من أهل طاعتك، اللهم اجعلنا ممن يحبك. فهذا يجعل الطاعة ليست على هوانا ولا على تقديرنا، بماذا أُمرت؟ افعل ما أُمرت، لا تسر وراء السراب وتأتِ إلى هذا الحكم وتقل: "ربنا غفور رحيم"، وتأتِ إلى هذا الحكم وتقل: "لا أظن أنه بهذا التشدد"، وتأتِ إلى هذا الحكم وتقل: "لا أظن أنه موضوع مهم في الدين!" في النهاية الإنسان سيتعب وينصب في العمل فلا يجد جزاء إلا العذاب! بمنزلة من ورد الماء للسقي فوجد عند هذا الماء من أخذه، وأسره، والله المستعان.

آخر مرة نشير إلى هذا المثل في هذا السياق ونقول إن الله -عزَّ وجلَّ- جعل أعمال الكافرين شبيهة بالسراب، في أن له صورة الماء وليس بماء. الكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله. مفاجأة الكافر بأخذ الله له تشبه مفاجأة من حسب أنه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث أنه تحقق أنه لا ماء، ووجد عند الموضع الذي بلغه من يترصد له لأخذه أو أسره (فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ).

إن شاء الله نكون بهذا قد وضحنا المثل الحسي وما يقابله من المثل المعنوي. وهنا نعود إلى أنفسنا ونؤكد أنه يجب علينا أن نكون أتقياء، نخشى الله، يكون في قلوبنا تعظيم للعلم النازل بالوحي إلى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ونعلم أنه الطريق الوحيد لحصول الإيمان ومعرفة الحقائق، وأن المؤمنين إنما استنارت قلوبهم وصلحت أعمالهم وأحوالهم بهذا الوحي، وأنه لا طريق لحصول ذلك بغيره، أبدًا. عرفنا من سار وراء السراب واعتقد أنه سائر على الطريق الصحيح، وهذا كثير ما حُذر منه في القرآن (يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا). قد يقال: "هؤلاء من أهل الإسلام"، نقول: "لا بد أن نعرف أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية" ومن

المعصية مخالفة أمر الله، القيام بالمعاصي، ومن المعصية ترك الأخذ بالوحي، وهذا من أعظم المعاصي، ترك الاعتصام بالكتاب والسنة. ينقص الإيمان إلى درجة أنه يذهب فيدخل الإنسان -والعياذ بالله- في النفاق؛ لذلك في سورة النساء وفي سورة المنافقون أخبر -عزَّ وجلَّ- أنهم: (آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا)، فنلاحظ أنهم بين دخول وخروج وبين نقص وزيادة إلى أن يأتي النقص الذي يزدادون فيه كفرًا، والعياذ بالله.

نأتي إلى المثل الثالث، صنف آخر من أصناف المخالفين بعد أن عرفنا الصنف الثاني:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)

هذا المثل ليس مثل المثل السابق فيه نور وسراب، هنا لا يوجد نور أبدًا، إنما هنا الظلام، فنلحظ أن عندنا حالة أخرى جديد مختلفة، حالة إنسان في ظلام، وهذا الظلام ليس بالظلام الهين، وهذه الظلمات (فِي بَحْرٍ

لُّجِّيٍّ) ليس ظلمة واحدة إنما (ظُلُمَاتٌ) متراكبة، وقد ذكر أهل العلم إن هذا المثل يشير إلى معنى معروف في معنى كلمة (ظُلُمَاتٌ)، فيتصور أن هناك شمس، لكن هذه الشمس مغطاة بالسحاب، ثم هذا الموصوف هنا في المثل أين مكانه؟ كأن المثل يشير إلى أنه في أعماق هذا البحر اللجي، وكلمة (بَحْرٍ لُّجِّيٍّ) تنقلنا إلى المحيطات، بمعنى بحر عميق. وهذه الكلمة في وصف الأمواج (يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ) هذه الكلمة لا تكون إلا في المحيطات العميقة.

أين مكان هذا المضروب له المثل؟ ظهر في آخر المثل (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) فتصوره أسفل هذا الوصف كله، أكيد أنه أسفل السحاب، وليس فقط أسفل السحاب، بل أسفل الموج (فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ). هذه الظلمات كيف تكونت؟ سنفترض أن الشمس موجودة من أجل أن تكتمل صورة المثل في ذهننا، ثم هناك سحاب يغطي الشمس، ثم هناك موج ومن فوقه موج، وهذا الممثل له في أعماق هذ المحيط، كم نسبة النور التي يمكن أن تصل إليه؟ ولا نسبة؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- قال: (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) يده أقرب الأشياء له، لماذا لا يراها؟! لأن لو افترضنا أن هناك شمسًا سيكون نورها

تغطى بهذه الثلاثة أمور، الأمر الأول: السحاب، الأمر الثاني: لو نفذ من السحاب نور ما الذي يمنع هذا النور من الوصول إلى أعماق البحر؟ أن هناك موج، ونتصور أن الماء الثقيل يمنع النور، يعكس جزء كبيرًا من النور، والسحاب أصلًا حجز غالب النور، وإن أتى نور فسيعكسه الموج الأول، وإن تسرب قليل من النور فسيعكسه الأمر الثالث: الموج التالي الذي في عمق المحيط؛ لذلك أشار كثير ممن ركبوا البحار وعرفوا هذه الأمور أن هذا الوصف لا بد أن يكون وصفًا لمحيط لأن المحيط فيه أمواج سطحية وفيه أمواج داخلية، وهو أسفل من هذا كله، و (فِي) هنا للظرفية المكانية، (كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ) يدل على أن الظلمات كائنة في مكان ما في البحر اللجي.

وعرفنا أن هناك أحدًا في الداخل من قوله: (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)، إذًا هو في الداخل، (مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ) هذه الأمواج الباطنية التي تكون تحت سطح الماء تعكس آخر النور الموجود.

فتصور مكانًا مظلمًا غاية في الظلمة لا يأتيه النور أبدًا، (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) فهذه كلها عوامل أسهمت في حجب النور عن هذا الذي في الداخل،

ولتتصور شدة الظلمة قال: (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)، (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ).

هذه الصورة للمثل به، صورة تدل على أن قلب هذا الإنسان ما دخل له النور أبدًا والسبب في ذلك: إعراضه عن النور، وتخيل أن الضلالات تشبه الظلمات، والأعمال التي اقتحمها هذا الكافر لقصد الحياة الطيبة أو لقصد حتى التقرب إلى الله تشبه البحر، وكل مرة يعمل أعمالًا تصبح مثل الموج؛ تزيد من ظلمته. (مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ)، فتجد هؤلاء كل مرة يجددون لأنفسهم أفكار الضلال وقبيح الأعمال. فإعراضهم كأنه هذا السحاب الذي منع الحق عنهم، ثم الموج الذي من فوقه موج، كأنه في كل مرة يجددون أعمالًا باطلة ويتجهون إلى أفكار بعيدة عن العلم، بعيدة عن الحق، ماذا يفعلون بذلك؟ يغطون الباقي من النور، حتى تستحكم فيهم الظلمة.

إذًا، باختصار، هذا المثل شبه صنفًا من الكفار، وأعمالهم أنهم في ظلام وضلال وأنهم لا يتمكنون من الانفكاك من هذا. مُثِّلوا بشخص كائن في مكان مظلم في قاع بحر عظيم مضطرب الموج، قد حُجب الضوء عنه بحجب كثيرة؛ سحاب، الموج المتلاطم على سطح

البحر، الموج الداخلي، فلا ينفذ من هذه الحجب شيء من الضوء إلى قاع البحر. والمثل بيّن أن هذه الحجب هي ظلمات مجتمعة معًا، تسبب انعكاس الضوء وانكساره، ومن ثم ارتداده بحيث يصل إلى حد معين فيعود منكسرًا فلا ينفذ، فيصبح ما تحته مظلمًا تمامًا لأنه في قاع البحر، هذا الذي في الداخل، الذي إذا أخرج يده لم يكد يراها، ما عنده قدرة على إبصار طريق الخلاص ولا الفكاك، لماذا؟ لأنه تحيط به الضلالات، بعيد جدًا عن مصدر النور، في البعد السحيق. هذا بالنسبة للصورة الحسية.

وبالنسبة للصورة المعنوية؛ هذا إنسان حجب كل طرق النور والخير؛ جحد الحق، أعرض عنه، منع نفسه من تطهير نفسه، من طلب الطهارة، بحيث أنه أخذ طريقًا بعيدًا عن الإيمان، (مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ) فهذه ظلمة الجهل وظلمة الكفر والضلال، وظلمة الختم على قلبه وسمعه وبصره، أعرض عن الحق، ما طلب العلم، حتى خُتم على سمعه وبصره.

ونحن نسمع قوله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ). وسمعنا في سورة الأنعام: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي

بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا).
فهذه الظلمات التي بعضها فوق بعض، أهل العلم في تفسيرهم ذكروا أنواعًا من الظلمات، كما مر معنا؛ ظلمة الجهل، ولا تتصور أنه ما وصل له العلم، إنما يُقصد الإعراض عن الوحي، الجحود، التكذيب، فهذا كأنه الموج الأول نتصوره الباطني، ثم ظلمة الكفر وهذا كأنه الموج السطحي، ثم الحجاب الناتج عن ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، وهذا نتصوره السحاب، هناك من قال: "إن السحاب هو الإعراض ثم الموج السطحي هو الكفر، وجعلوا الموج الداخلي هو ختم الله على قلوبهم" هذا قول وهذا قول متقابل تمامًا، فهناك من بدأ "أنه هو الذي أعرض فهذا الموج الداخلي، ثم هو الذي كفر فكانت النتيجة الموج الخارجي ثم الله حجبه فختم على سمعه وبصره وهذا السحاب" فهذا الترتيب أو عكسه تمامًا، سيكون الأمر دائر حول هذا.

هذا أو هذا النتيجة ما مسلك هذا الإنسان؟ كذب، أعرض عما أنزل الله من العلم وكفر وضل في اعتقاده وعمله، طبع الله على قلبه، هذه هي حالته. هذا (مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ)، مثل هؤلاء إذا أخرجوا

يدهم لا يرونها، مثل هؤلاء لو أتيت بكل الأدلة أمام عينيه، يكون مثل من لو أخرج يده لا يراها!

نسأل الله أن ينجينا من أحوال هؤلاء ويجعلنا من أهل الإيمان، وهو مقلب القلوب، أن يثبت قلوبنا على دينه، نسأل الله بمنّه وكرمه، أن يعيننا على إحياء الليالي الباقية، وعلى صيام النهارات الباقية من هذا الشهر المبارك، وأن يجعل لنا ساعة السعادة في عمل صالح يقبله منا، وفي إحياء ليلة القدر فتكون سببًا لسعادتنا في الخلود في جنات النعيم، اللهم آمين.